د. شباب محمد أمين المستوى: أولى ماستر علم اجتماع تنظيم وعمل مقياس: سوسيولوجيا العمل

المحاضرة الأولى: علم اجتماع العمل... محاولة الإحاطة بالموضوع في المؤسسة الجزائرية.

تمهيد:

تشمل هذه المحاضرة محاولة تفكيك أولى لبعض عناصر المقياس الأساسية والعادفة إلى تقديم علم اجتماع العمل والمؤسسة من منظور سوسيولوجي، وهو في بعض زواياه محاولة لرصد التطور الفكري والتاريخي المفضي إلى ولادة تخصص علم اجتماع العمل.

كما تهدف هذه المحاضرة إلى تقديم رؤية متكاملة حول تطور مقاربات سوسيولوجية العمل وما أفرزته من أطروحات مؤسسة ساهمت في سياقات تاريخية معينة ارتبطت بأوج التصنيع الغربي- على نحو ظاهرة العمل وآليات اشتغالها وانعكاساتها المختلفة على حياة الأفراد والجماعات.

أولا: علم اجتماع العمل. محاولة التعريف:

1- مفهوم العمل:

إن العمل ظاهرة إنسانية واجتماعية شاملة - على حد تعبير عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا مارسال موس Marcel Mauss - ذات أبعاد متعددة، منها البيولوجي المتمثل فيما يبذله الإنسان من طاقة جسدية عند ممارسته للعمل، ومنها النفسي ذو الصلة الوثيقة بشخصية العامل ومختلف انفعالاته الكامنة وتفاعلها مع مكان عمله ومحيطه، ومنها الاجتماعي ذو الصلة بشبكة العلاقات الاجتماعية التي تنسج بين الأفراد الموجودين داخل مجالات العمل.

ويمثل العمل قاسما مشتركا بين جميع البشر؛ باعتباره جملة من الأنشطة ذات الأهداف الجماعية ينفذها الإنسان على المادة بواسطة عقله ويديه وعبر استخدام الإنسان.

1
1

و يمكن اعتبار العمل مختلف أصنافه - سواء تلك التي تتجسد مقابل أجر أو بدون أجر - مجموعة مهام يتطلب تنفيذها بذل جهد فكري ونفسي وعضلي، يقدم من خلاله سلع أو خدمات معينة لتلبية جملة من الاحتياجات البشرية، وبهذا المعنى يتجاوز مفهوم العمل المعنى الضيق للمهنة أو الوظيفة التي تقترن بأجر يدفع مقابل العمل والجهد المبذول.

و يمكن القول عموما إن منطلقات تعريف ظاهرة العمل قد تتعدد وتتنوع، حيث يمكن اعتبار العمل بمثابة المهنة أو الحرفة بما أنه يمثل نشاطا مهنيا يتلقى من أجله الفرد تكوينا ويكتسب مهارة وخبرة ودراية ترتبط عادة بتجربة وممارسة طويلتين، كما يمكن اعتباره كذلك مهارة بما أنه يتطلب معارف وقدرات معينة يتم انتقاء الفرد تبعا لاكتسابه إياها وتمكنه منها، كما يمكن اعتبار العمل ممارسة نشاط بما أنه يمثل جملة من المهام المتناسقة التي يقوم بها الفرد و يستمد منها معاني وجوده ومصادر رزقه، كما يمكن اعتباره وظيفة بما أن العمل قد يتمثل في جملة من المهام التي توكل لفرد ما مقابل أجر معين.

ولكن رغم كل ذلك يبقى أهم ما يستحق التأكيد عليه في تعريف العمل هو اعتباره بدرجة أولى جهدا يبذل في إطار ممارسة نشاط معين ولا يمكن التغاضي تبعا لذلك عن ضرورة رصد الهدف الذي يبذل ذلك النشاط والجهد من أجله، ماديا كان ذلك الهدف أو غير مادي.

2- مراحل تطور ظاهرة العمل:

تجمع أغلب الدراسات المتناولة لظاهرة العمل على أن تطور الظاهرة تاريخيا قد مر عبر ثلاث محطات رئيسية تم خلال كل مرحلة منها تطور العمل ووسائله بصيغ مختلفة، وتغيرت ضمن كل مرحلة علاقة الإنسان بالعمل وبالآلة.

- المحطة الأولى:

انطلقت هذه الظاهرة مع بداية العهود الأولى للصناعة، وتركزت خطوات مع تدشين الإنسانية لاستخدام الآلات التي كانت متغيرا جديدا فرض نفسه حينها

واصطلح على تسمية أول آلات عهد الصناعة "بالآلة - الأداة" حيث كانت الأدوات تضبط في الآلات حسب كل مرحلة من مراحل عملية الإنتاج، ليتم تغيير الأداة المناسبة في كل مرحلة من مراحل التصنيع، وكانت عملية تغيير الأداة من مرحلة إلى أخرى بمثابة وقف مؤقت لعمل الآلات المتكررة في تلك اللحظة الثانوية، وعدم وفرة مصادر الطاقة، فكان الإنتاج تبعا لذلك محدودا، ويتم بمعدل القطعة الواحدة في كل مرحلة من مراحل العملية الإنتاجية.

وقد ارتبطت بدايات استخدام الآلات بنظام "ورشات العمل" الذي عرف في البداية في بريطانيا، وكانت تلك الورشات بمثابة مؤسسات صناعية محدودة الحجم والأهمية وقليلة المكننة، وتعتمد على مجموعة من الآلات البسيطة للجمعة في مكان واحد، بعدد قليل من المشرفين وعمال الصيانة، وكانت مختلف آلات الورشات في البداية من نفس النوع، وتؤدي عملية واحدة أو مجموعة من المهام البسيطة والمتكررة.

- المحطة الثانية:

تعرف مرحلة التحول نحو الإنتاج الكمي الكبير، وهي مرحلة ابتعدت فيها ظاهرة العمل عن الحرفي في حدود المكان الضيق والآلة الواحدة، لتشهد مرحلة من تفتت العمل واعتماده على مراحل وأماكن متباعدة، وحلت سلسلة الآلات المتعددة والمتخصصة في كل مرحلة من مراحل عملية الإنتاج محل "الآلة - الأداة"، فتغيرت تبعا لذلك طبيعة عامل هذه المرحلة وتوعيته لتخصص محاصر في تغذية وعناية الآلة بوضع قطعة أو سحبها أخرى، وهو ما يعد خبرة السابقة وسيطرته المباشرة على آلات متوفرة لممارسة عمله بإتقان. وهي تقوم بيرنس Tom Burns أن هذه الحقبة الثالثة من التطور الصناعي انطلقت منذ عام 1850 في اتصال بانتشار التصنيع في معامل خياطة الملابس والصناعات الغذائية والكيمياء، وهي جملة تلك الصناعات التي ارتبطت بصيرورة إنتاج معقدة، وتقدم فيها التعقيد والتطور التقني لعملية الإنتاج تطورا موازيا في أنساق التنظيم الاجتماعي والإداري التابع له، وخاصة فيما يتعلق بمسألة الرقابة والتخصص الرأسي، وقد برز حجم هذا التطور البيروقراطي للموازي للتطور التقني أساسا في طوعه والطيريزية والهوارثي وتنوع المختصين في مجال العمل.

- المحطة الثالثة :

امتازت هذه المرحلة بمسار من التجميع تشمل جملة العمليات المنجزة خلال الحقبة الثانية من حقب التصنيع، ومميزة فيها استعمال آلة مركزية تتولى إنجاز مختلف مهام الآلات المتخصصة خلال المحطة الثالثة، ويمكن القول أن ظاهرة العمل قد تشكلت جملة من التحولات الهيكلية من فترة رضية إلى أخرى لعل أبرزها تجسد تحول الاقتصاد البشري من الاعتماد على العمل اليدوي وتدريجيا للماشية في اقتصاد المجتمعات التقليدية إلى العمل الصناعي الذي أضفى قوام اقتصاد المجتمعات الحديثة، حيث أصبح النشاط الزراعي ضمنيا نشاطا مضحيا في أغلب الحالات.

وقد عرفت الصناعة بدورها تحولات وتغيرات كبيرة لا سيما في العقود الأخيرة، حيث تغيرت طبيعة العمل الصناعي لتغير نمط الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الحديثة، وقد أحدث التقدم التقني للقرن العشرين تحولا جذريا في الاقتصاد العالمي وفي طبيعة العمل، والأنواع الممارسة منه، وبينما كان سوق العمل في مطلع القرن العشرين تحولا جذريا في الاقتصاد العالمي وفي طبيعة العمل يعتمد على التضحية القائم على حيوانات العمل ذوي الياقات الزرقاء" فإن الاتجاهات الحديثة على إثر ذلك نزعت نحو التركيز حول قطاعات العمل والخدمات "أصحاب الياقات البيضاء"[1].

نخلص مما تقدم إلى القول بأنه - رغم ما شهده العمل كظاهرة إنسانية من تطور وتحول في بعض مظاهره، أو ربما في أغلبها، في زمننا الحالي، مما أفضى إليه تنوعه وتعدد مضامينه وأساليب ممارسته - يبقى من الملفت الانتباه تأكيد على أن محاولة تحريف العمل وظيفته تظل محاولة لا يمكن لها أن تستثني أي تشكل من أشكال العمل، مهما بدت تلك الأشكال تقليدية أو غير متأقلمة مع ما استجد من تطور تقني وتكنولوجي غير من طبيعة العمل وأوجه ممارسته، ومهما استحب على بعض ظواهره من مستجدات كانت غير مألوفة في وقت قريب، كالعمل عن بعد وغيرها من الأشكال الأخرى المنبثقة عن عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصال.

---

[1] ارتبط مصطلح الياقات الزرقاء بجيوش العمال المنفذين الذين يتولون العمل بالساعد داخل المصنع، ويرتبط اللون بالمنديل الأزرق الذي كان عمال الورشات يرتدونه عند أداء العمل لامتصاص العرق، أما عبارة أصحاب الياقات البيضاء فقد ارتبطت بالمشرفين على المصانع والذين يتولون متابعة عملية الإنتاج من مكاتبهم البعيدة عن الصخب.